الفصل الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

ثالثاً : تأليه المسيح

تبدو قضية التوحيد أكثر ما تبدو استحقاقا ووضوحا عندما يكون إنكار التوحيد من قبل أهل الكتاب وأصحاب الديانات السماوية . ويبدو هذا الإنكار فى غاية السفه عندما تحصر بعض طوائف النصارى الألوهية فى المسيح عليه السلام .

وهنا نلاحظ من جديد – فى نصوص القرآن – كيف تظهر جدلية النكران والثبوت فتنكر الشريك متمثلا فى المسيح وتثبت الإلهية لرب المسيح . وتتحرك هذه الجدلية من خلال أنساق عدة فى النكران وكذلك فى الثبوت ، ويتدبر البحث هنا أوجه المناسبة بين هذه الأنساق وبين المواضع التى وردت فيها إقرارا لوحدانية الواحد ورفضا لتأليه المسيح .

ويلاحظ الدارس فى هذا الصدد قول الحق سبحانه وتعالى :

(...يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٌ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ ...)[1].

١- سورة النساء . آية ١٧١

كما يلاحظ أيضا قوله تعالى :

(لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) [1].

والنكران هنا يتمثل – فى الآية الأولى – فى النهى عن غلو أهل الكتاب فى الدين بتأليههم للمسيح وتجاوزهم الحق فى مفهوم الإله ، ثم إن هذا النكران نفسه منسحب على الآية الثانية وهى تالية للأولى مباشرة فى سورة النساء ومستمرة فى القضية ذاتها .

أما الثبوت فإنه فى الآية الأولى يأتى من خلال القصر بـ (إنما) المثبت لحقيقة المسيح من حيث هو رسول وكلمة وروح ، لكنه – فى ذلك كله – لله أى منتسب إلى ربه خاضع لما كلفه به . ومضمون النسبة والوجود بقدرة الله هو ما يظهر فى قول الزمخشرى عند وقوفه أمام هذه الآية وذلك فى قوله : " وقيل لعيسى كلمة الله وكلمة منه لأنه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير واسطة أب ولا نطفة . وقيل له روح الله وروح منه لذلك ؛ لأنه ذو روح وجسد من غير جزء من ذى روح كالنطفة المنفصلة من الأب ، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة " [الزمخشرى / الكشاف / ١ / ٥٨٤ – ٥٨٥] .

١- سورة النساء . آية ١٧٢

ولكننا نضيف إلى جانب هذا المضمون – المثبت لحقيقة المسيح – جانب النسق الدال على هذه الحقيقة ، فاستخدام أسلوب القصر يدل على تخصيص وحصر المقصور وهو (المسيح) فى مدلول المقصور عليه وهو (رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ومعنى هذا أن المسيح الذى يغالى بعض أهل الكتاب فى حقيقته ، فيصلون بها إلى حد الألوهية ليس كذلك بل هو مقصور ومحصور فى إطار المخلوق الموجود بغيره ، والمخلوق والموجود لابد له من خالق وموجد ، ومن ثم يستكمل النسق القرآنى تمام الثبوت بقوله تعالى: (...فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ...) وهى دعوة تفرض على أهل الكتاب العودة إلى الإيمان بالله وحده إلها ، وبالمسيح عيسى بن مريم رسولاً كباقى الرسل الذين يستوجب النسق الإيمان بهم .

بينما يأتى الثبوت فى الآية الثانية مجادلاً للنكران بالغلو فى الآية الأولى ، وذلك عن طريق الأسلوب الخبرى النافى استعلاء المسيح نفسه عن العبودية لله ، بل النافى استعلاء من هو فوق المسيح – على حد استخلاص الزمخشرى[1] – وهم الملائكة المقربون .

١- يستدل الزمخشرى – فيما يرى هو – بعلم المعانى ، على أن قوله تعالى(...وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ...) يعنى من هم أرفع درجة من المسيح فيقول : فإن قلت من أين دل قوله (...وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ...)على أن المعنى ، ولا من فوقه ؟ . قلت من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك ، وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم فى رفع المسيح عن منزلة العبودية ، فوجب أن يقال لهم : لم يترفع عيسى عن العبودية ، ولا من هو أرفع منه درجة ، كأنه قال لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية ، فكيف بالمسيح ، ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة " . (الزمخشرى الكشاف ١ / ٥٨٦ –

واللافت للانتباه هنا أن الثبوت يتأتى من خلال النفى ، بل إن هذا النسق يصبح أكثر إقناعاً للمغالين فى حقيقة المسيح ، فإذا كان الخبر هنا جارياً على مقتضى الظاهر فهو خبر ابتدائى ، وإن كان خارجاً على مقتضى الظاهر فهو منزل للمنكر منزلة خالى الذهن ، وفى كل من الحالتين فهو دال على أن الأمر لا يستحق المراء فعلاً أو أنه لا ينبغى أن يكون موطناً لهذا المراء والإنكار ، بحكم أن ضامن صدق هذا الخبر والمتكلم به هو خالق المسيح ، بدءا فى الآية الأولى ، وهو حاشره مع غيره من مخلوقاته آخرا فى الآية الثانية .

فإذا ما صح الدليل بذلك على أن المسيح عبد لله ، بل والملائكة المقربون عباد لله كذلك ، صح معه نكران غلو القائلين بغير ذلك وثبت أن الواحدية لله دون شريك

وفى هذا المضمون أيضاً – أقصد مضمون تأليه المسيح – يرد قول الحق سبحانه وتعالى :

(لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) (١).

---

٥٨٧) ونحن نرى أن الزمخشرى على حق فيما ذهب إليه ونزيد الأمر بيانا بأن العطف بين الملائكة المقربين وبين المسيح يعنى تساويهما فى الحكم ، فإذا كان المعطوف هم الملائكة وهم متجردون من كل الخصائص البشرية التى لم يتجرد منها المسيح ، ثم إذا كان هؤلاء الملائكة هم المقربين منهم على وجه خاص دل ذلك على أن المعطوف عليه وهو المسيح أوجب منهم فى الخضوع للحكم بالعبودية لله .

١- سورة المائدة : الآية ١٧

وكذلك يرد قوله تعالى :

(لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) [1].

ومن البين أن كلتا الآيتين – وهما من سورة المائدة – تعالجان قضية واحدة وهى تكفير، أى نكران قول أهل الكتاب بتأليه المسيح عليه السلام ، ومن البين أن النسق يتفق فى كلتا الآيتين فى هذه الافتتاحية اتفاقاً تاماً ، ولكن المثير للتساؤل هو ختام الآيتين فالمضمون فيهما إثبات للواحدية فى الله رداً على قول المشركين ، وإن كان النسق المعبر عن هذا المضمون قد جاء فى الآية الأولى استفهاماً من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بتكليف من ربه ، وهو استفهام استنكارى بينما جاء نسق الآية الأخرى أمراً طلبياً من المسيح لبنى إسرائيل بعبادة الله رباً له ولهم وجاء هذا الأمر ضمن كلام خبرى يرويه رب العزة عن بنى إسرائيل ونبيهم .

فأما أول هذه الخلافات وهو كون الإثبات فى الآية الأولى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وكون الإثبات فى الآية الأخرى على لسان عيسى عليه السلام فمصدره أن السياق حول الآية الأولى يتضمن توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أهل الكتاب بدعوته فيمن توجه إليهم من العالمين فإنه بدءاً من الآية الثانية عشرة

١- سورة المائدة . الآية ٧٢

فى سورة المائدة تعرض الآيات لمواقف أهل الكتاب الذين دأبوا على نقض العهود وعلى الخيانة وتدعو الرسول إلى العفو والصفح ، وتخاطب الآية الخامسة عشرة أهل الكتاب فتخبرهم بشكل مباشر أن الرسول قد جاءهم ليبين لهم الكثير مما كانوا يخفون من الحق ، وفى هذا الإطار تظهر الآيات أن أهل الكتاب قد كفر منهم الذين قالوا بتأليه المسيح ثم تدعو الرسول – بحكم أنه مرسل إليهم ليظهر لهم الحق – أن يثبت لهم بطلان دعواهم ؛ لأن الله سبحانه يملك السموات والأرض وما بينهما ، وأنه قادر على أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً .

وأما فى الآية الأخرى فقد كان الثبوت على لسان عيسى لأن السياق أيضاً اقتضى ذلك ، فإنه وإن كان السياق بدءاً من الآية السابعة والستين يعرض لتكليف الرسول بتبليغ رسالته إلى أهل الكتاب ، فإن هذا السياق يتضمن سياقاً داخلياً آخر يبدأ فى الآية السبعين ، ويحكى عن أهل الكتاب – لرسوله صلى الله عليه وسلم– أنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه أو قتلوه ، وفى هذا الإطار نفسه يحكى عن إرسال عيسى عليه السلام إليهم وموقفهم فى عصيانه وتأليههم له ، ثم ما قاله لهم المسيح لإثنائهم عن هذه المعصية (...وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...) .

وبهذا يبدو استيجاب كل نسق لمن جاء الثبوت لوحدانية الله على لسانه ، وهو النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى الآية الأولى ، ثم المسيح عيسى بن مريم فى الآية الأخرى .

وأما الخلاف الآخر بين الآيتين فمصدره أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الآية الأولى استخدم أسلوب الاستفهام الاستنكارى ؛ لأن الاستدلال المسوق منه إلى بنى إسرائيل ليس موجها إليهم خاصة ؛ فهو رسول للناس كافة ، ثم إن القضية المستدل على بطلانها ليست قولاً جديداً ولا ناشئاً فى زمن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بل هو قول أهل الكتاب فى زمن عيسى عليه السلام ، وقد دعاهم عيسى نفسه إلى التخلى عن هذا ، فمن استمر منهم على رأيه أصبح بحاجة إلى استدلال عقلانى وهو ما جاء به النسق القرآنى فى الآية السابعة عشرة من سورة المائدة .

وأما الأسلوب الخبرى الذى جاء على لسان عيسى عليه السلام فقد جاء مناسباً لموضعه من حيث إن مقالة عيسى بكاملها تأتى فى إطار سياق داخلى يحكى خبراً عن بنى إسرائيل ومواقفهم مع رسلهم ، أى أن هذا الحوار بين بنى إسرائيل والمسيح ليس حواراً حياً مباشراً بينهما ، بل هو حوار جرى بينهما فى زمنه ، ثم رويت صورته بعد ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى هذه الحال كان لابد أن يحكى النسق ما قاله عيسى عليه السلام بأسلوب خبرى .

وفى هذا الإطار نفسه أعنى دعوة المسيح لبنى إسرائيل بأن يعبدوا الله الذى هو ربه كما هو ربهم واعترافه على لسانه بأنه عبد مربوب لله ، وأنه ليس إلها كما زعموا عنه أقول نجد فى هذا الإطار آيات متوافقة فى هذا المضمون ومختلفة فى النسق ، وهى قوله تعالى :

(إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ) [١]

ثم قوله تعالى– كما سبق فى سورة المائدة:

(...يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ ...) [٢].

ثم قوله أيضا فى السورة نفسها "

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...)[٣] .

وكذلك قوله تعالى:

(وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ) [٤].

١- سورة آل عمران . الآيـــة ٥١
٢- سورة المائـــدة . من الآية ٧٢
٣- سورة المائـــدة . من الآية ١١٧
٤- سورة مريـــم : الآية ٣٦

obeikandl.com

ثم قوله تعالى :

(إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ)[1].

وقد لاحظ الخطيب الإسكافى أن آية سورة الزخرف قد زيد فيها قوله تعالى (هُو) ولم يكن النسق كذلك فى آيتى سورة آل عمران ولا سورة مريم ويمكننا أن نستدرك عليه هنا أن هذا المضمون قد ورد كذلك فى سورة المائدة – على نحو ما ذكرنا – فى الآية الثانية والسبعين والآية السابعة عشرة بعد المائة . ويدفعنا هذا الاستدراك على الخطيب الإسكافى إلى التسليم له بما انتهى إليه من توجيه فى قوله عند وقوفه أمام سورة آل عمران:" قوله تعالى :

(وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ)

وقال فى سورة مريم مثله ، وقال فى سورة حم الزخرف حكاية عمن حكى عنه فى السورتين

(إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ)

فزاد (هو) فى هذه الآية من هذه السورة . للسائل أن يسأل عما أوجب اختصاصها بهذا التوكيد دون الموضعين الأولين ، وهى كلها فيما أخبر الله تعالى به عن عيسى عليه السلام .

١- سورة الزخرف : الآية ٦٤

oneKandi.com

والجواب أن يقال إنما لم يجب فى الأوليين من التوكيد ما أوجبه اختيار الكلام فى الموضع الثالث ؛ لأن قوله عز وجل (إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ...) حكاية عن عيسى بعدما مضت آيات كثيرة فى ذكره ، وابتداء أمره من مبتدأ الآية التى نزلت فى شأن مريم وهى

(وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

إلى آخر هذا العشر ، فلما تناصرت هذه الآيات المتقدمة فى ذكره ، ودلت على إحداثه وخلقه ، كانت فيها دلالة على أنه مربوب مصنوع بكثرة الأفعال التى أسندت إليه ، وجعلت آيات له ، وأنه عبد من عبيده ، والله ربه ومالكه والقائم بمصالحه ، وأنه أصحبه معجزات تدل على صدقه فى نبوته وكذب من قال بنبوته فصرفتهم تلك الأفعال التى تقدم ذكرها إلى العلم بأنه تعالى ربه . وكذلك فى سورة مريم جاء قوله : " وإن الله ربى وربكم " فكانت تلك العشرون الآية ناطقة بأن الله ربه ، فاكتفى بما طال من الكلام المؤكد لحاله على حقيقتها عن التوكيد الذى جاء فى سورة الزخرف لأنه لم يذكر هذه الآية إلا بعد قوله:

(وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ...)

فالموضع الذى خلا من الآيات الكثيرة الدالة على أن الله تعالى ربه وهو عبده لا ابنه ، حسن تأكيد الكلام فيه صرفا للناس عما ادعوه من أنه ابن الله إلى أنه عبده . (الخطيب الإسكافى . درة التنزيل ص ٦٧ – ٦٨) .

وتسليمنا للإسكافى بحجته فى النص السابق مرجعه أن توجيهه يصدق إذا رحنا نجريه على آيتى سورة المائدة .

فقوله تعالى :

(...يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ ...)

لم يحتج إلى زيادة ضمير الفصل للتأكيد ؛ لأن الآية بدأت بتكفير الحق – سبحانه وتعالى – لمن قال بتأليه المسيح ، وكانت حكاية قول المسيح هنا من باب دعوته لهم تبرئة لساحته من أن يدعى عليه من بعضهم أنه دعاهم إلى ذلك . ولم يكن بعد هذا التأكيد الصريح لكفر من قال بالتأليه مجال للمسيح ولا غيره من البشر أن يؤكد قول الله عز شأنه .

وكذلك قوله تعالى :

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...)

لم يكن فى حاجة للتأكيد بضمير الفصل لأنه قد سبق هذه الآية ابتداء من الآية العاشرة بعد المائة مجموعة آيات تتحدث عن فضل الله على عيسى بن مريم

وأمه وتأييده له بالمعجزات والآيات التى تصدق كونه رسولاً مؤيداً من ربه ، ثم كانت المحاجة الصريحة عندما سأله الحق سبحانه :

(...ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ...)

ليبطل دعاوى القائلين بالتأليه من خلال رد عيسى نفسه الذى ينفى[1] أن يكون له حق فى مثل هذا القول ، ثم يعقب بدعوته لهم إلى عبادة الله ربا له ولهم ، فلم يكن هنا أيضاً مجال للتأكيد بعد كل ما سبق من الآيات التى تؤكد عبودية عيسى لربه .

١- فى قوله تعالى : (...ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ...) استفهام خرج عن معناه الأصلى وهو طلب العلم بمجهول إلى معنى بلاغى يحدده السياق وهو هنا – فيما نرى – إقرار عيسى نفسه – وهو المؤله عند بعض أهل الكتاب – إقراره أمام ربه يوم الحساب بأنه ما قال لهم ألهونى ، وما كان يحق له قول ذلك .
وأبو عبيدة معمر بن المثنى يدرك أن مجاز الاستفهام فى الآية مجاز بلاغى ولكنه لا يقف على المقصود البلاغى لهذا الاستفهام بشكل واضح فهو يقول : (...ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ...) هذا باب تفهيم وليس باستفهام، وإنما يراد به النهى عن ذلك ، ويتهدد به ، وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن " (أبو عبيده معمر بن المثنى . مجاز القرآن – ١ / ١٨٤) .

obeikandl.com